الأسس والقواعد الإسلامية التربوية والوقائية للاتصال العمومي

ا/ أمال عميرات
أستاذة جامعية بمعهد علوم الإعلام والاتصال بجامعة الجزائر

إنّ الاتصال هو النشاط الذي يستهدف الشيوع والانتشار لفكرة أو موضوع أو قضية ما، عن طريق انتقال المعلومات والأفكار من شخص أو جماعة إلى أشخاص أو جماعات باستخدام الرموز ذات المعاني المحدّدة والمفهومة بنفس الدرجة لدى كل من الطرفين، فالاتصال أساسي كل تفاعل إعلامي ثقافي، حيث ينتج عنه نقل المعارف والمعلومات وتيسير التفاهم بين الأفراد والجماعات، فهو النشاط الذي يستخدمه الإنسان لتنظيم حياته واستقرارها أو لتغيير حياته الاجتماعية، ولا يمكن لأي جماعة أو منظمة أن تنشأ أو تستمر دون اتصال يجري بين أعضائها، وعليه فإن عملية الاتصال تسعى لتحقيق هدف عام هو التأثير في المستقبل حتّى تتحقّق المشاركة في الخبرة مع المرسل، حيث ينصبّ هذا التأثير على أفكار المستقبل لتعديلها أو تغييرها أو على اتجاهاته أو على مهاراته[1].

وعندما يكون هذا التأثير متجّهًا نحو تعديل أو تغيير اتّجاهات ومواقف وسلوكات نحو الأفضل لصالح المجتمع ككل، فإنّ هذا النوع من الاتصال الهادف للمصلحة العامة للمجتمع اصطلح على تسميته بالاتصال العمومي، الذي يعرّفه "Michel LENET" على أنه يتجاوز مجرّد تبادل المعلومات بين طرفي الاتصال، بل إنّه أوسع من ذلك عندما يحاول التأثير على الاخرين بالإقناع من أجل تعديل المعارف والمواقف والآراء والسلوكات، سعيا نحو مصلحة المجتمع كهدف أساسي له، فهو بذلك يستجيب للمصلحة العامة خاصة في مجال

مكافحة الآفات الاجتماعية وترويج القيم الأساسية، فهو بذلك يحفّز ويدعو كل فرد من المجتمع بأخذ نصيبه من المسؤولية لمصلحة المجتمع، وهذا النوع من الاتصال الاجتماعي العمومي يسمح بالوقاية من مختلف الأمراض والحوادث، ويسمح بالتربية في مختلف المجالات سواء كانت صحية أو خاصة بحماية البيئة أو ترويج قيم اجتماعية أو وطنية، أي محاولة تطوير مشاركة الفرد داخل مجتمعه مشاركة إيجابية فعالة.[2]

فالاتصال يعبر لكي يقنع ويعدل المعارف والآراء والمواقف الخاصة بالآخرين وعندما يكون هذا التعديل لصالح المجتمع ككل ويستجيب لتطلعات أفراده وفائدتهم، يُسمّى اتصالاً عموميًا هدفه الأساسي تصحيح المواقف والسلوكات بالإقناع، فهو يسمح بإنجاز مهمة مشتركة ذات فائدة على المجتمع تجعل كل فرد يأخذ نصيبه من المسؤولية سعيًا لتطوير المشاركة ذات المصلحة العامّة، فهو رهان إستراتيجي يذلل الصعوبات ويسمح بالوعي في الحياة الاجتماعية بالدعوة إلى اليقظة للتقليل من النفقات التي قد ينجرّ عنها انتشار الآفات والسلوكات الخاطئة.[3]

فهو إذن إستراتيجية بث لبقة تتفادى التبذير، حيث لا يقتصر دور هذا النوع من الاتصال على الإعلام فقط، بل يتطلّب تحضير الجمهور المستهدف والتوضيح له وحثّه على المشاركة من أجل المصلحة العامّة، وهذا ما يؤدّي لتحقيق الهدف منه وهو المدنية والتحضّر كغاية لا تظهر نتائجها فورًا.[4]

وهناك من يطلق على هذا النوع من الاتصال بالاتصال الاجتماعي، حيث يقع تحت معاني "الصالح العام" عن طريق حق الجمهور في المعلومات والبحث عن الحقيقة بالعمل الاجتماعي لوسائل الإعلام، حيث العمل في هذا المجال يبحث عن الانخراط الاجتماعي للمجتمع وتبني مختلف القيم والمبادئ.[5]

إنّ المصالح العمومية تقوم بالاتصال في محاولة لإرسال معلومات من أجل الجذب والإقناع وتقوية كل ما هو إيجابي في مختلف المجالات، لأنّ مجالات الاتصال العمومي متعدّدة، فهناك المجال الصّحي الذي يفرض الوقاية قبل العلاج وتوعية الأفراد بخطورة الأمراض الفيروسية مثلا كالسيدا، وهناك المجالات الاقتصادي، والمجال البيئي وغيرها من المجالات التي تتضمن رسائل متضمنة في حملات إعلامية

موجهة للجمهور العام، تحتوي على التوعية بالخطورة الناتجة عن السلوكات الخاطئة والسلبية بتقديم النصائح وكيفية الرقابة أو المعالجة من مختلف الآفات.[6]

أولى خطوات الاتصال العمومي تبدأ بالرقابة:

إنّ الإقناع بضرورة سلك السلوك الصحيح أو اتخاذ الموقف الملائم لحياة أفضل دون مشاكل وآفات من أصعب الأمور التي قد تُلقى على عاتق القائم بالاتصال في مجال الاتصال العمومي، خاصة إذا تعلّق الأمر بتغيير سلوكات أصبحت مع الزمن طبعا ثانيا يصعب التخلي عنه، لذلك فإنّ البدء من مرحلة الطفولة يعدّ اختصارًا للجهد والوقت وحتّى المال، لأنّ الطفولة تمثل البذور والجذور في بناء وتكوين الإنسان، ونوع التنشئة والتربية والرعاية التي يحظى بها الأطفال تشكّل شخصياتهم عبر مراحل نموّهم المختلفة جسدًا وفكرًا ووجدانًا وسلوكًا، لذلك فهي مرحلة مهمّة تُسهم في رسم وتشكيل أساسيات أبعاد شخصية الإنسان وحظيت بمساحة واسعة في التفكير التربوي منذ أن عرفت البشرية طريقها إلى التربية والتعليم. واليوم أكثر من أي وقت مضى نعيش في زمن فتحت الثقافات المختلفة أبوابها وشرعت نوافذها فدخل الصالح والضّار، ممّا أدّى إلى اهتزاز القيم والمبادئ والمثل والأخلاق واضطربت الثوابت إن لم تكن سقطت[7]، فالإنسانية تسعى دائمًا لطلب الأفضل، في كل ما يحيط بها أو يلزمها وطلب الأفضل والأحسن والأجود في مجال التربية أولى وأحقّ، فالكلمة ضالة المؤمن، حيث وجدها فهو أحق بها، فالتربية تزيّن الحياة وتجمّلها وتصلح بها وتستقيم، وبدونها تذبل وتختفي وتصبح الحياة نعمة عوض أن تكون نعمة، نقمة بالآفات ومختلف الأمراض الاجتماعية التي تحصل نتيجة لا وعي الأفراد ونقص أو انعدام التربية، لذلك فالاتصال العمومي في نهاية المطاف تربية تستهدف التوعية والوقاية من سلوكات وآفات وأمراض الإنسان وحده المسؤول عنها والمتسبّب فيها.

فالتربية هي تنمية شخصية الإنسان منذ الطفولة بجميع جوانبها الدينية والروحية والخلقية والعقلية والجسدية والنفسية والاجتماعية، بحيث تعطي لكل جانب من هذه الجوانب حقّه في الحماية والرّعاية والتّوجيه بتربية مستمرة متطوّرة، مراعية لكلّ مراحل العمر المختلفة لا أن تقف عند سن معيّن وتعمّم لجميع المراحل العمرية

أسلوبا تربويا واحدا، فلكلّ مرحلة خصائصها، فالتربية الهادفة تهتم بمتابعة السلوك والتصرفات مع ملاحظة التغيير الطارئ والعمل على الارتقاء به بمعالجة المظاهر السيئة ووضع حمايات تقيه المخاطر التي قد يتعرّض لها.

التربية أيضا تهتم بتربية التطور بالرقابة الذاتية في نفس المستهدف من التربية، وهو نوع من غرس الثقة، حيث لا تكون إلاّ بتوفّر **قدر** من الحرية وترك الفرصة للحوار، فالحوار يفيد القائم بالاتصال والمستقبل، لأنّ الأفكار تنضج وترتقي من خلال الحوار والنقاش، ولا يشعر المستقبل بأنّ المرسل يمارس نوعًا من إلغاء الذات والشخصية.[8]

لقد أصبح الاتصال العمومي بالتربية أكثر من ضرورة، حيث يحتاج المجتمع إلى تربية تدخل أعماق حياة الأمّة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية كعمود فقري لها، فهي من أهم وسائل الرقّي الحضاري والازدهار الثقافي وأداء الوظيفة الحضارية الشاملة.

فإذا كان الإنسان هو صانع الحضارة وكل شيء في الحضارة متوقف عليه، فمصيره يتوقف إلى حدّ بعيد على التربية التي تكوّن البيئة المحيطة به، فكلّما سمت التربية ازدهرت الحضارة واتسعت أمامها آفاق الحياة وأمّة التربية الإسلامية ذات الرسالة الخالدة لديها من مقومات التربية ما يجعلها صانعة الحضارة بعيدة عن الآفات لكن ابتعادها عن هذه الأسس التربوية جعلها تفقد قيمتها الحضارية بالتالي موقعها الحضاري.

الأساس التربوي للاتصال العمومي مبدأه الأساسي الوقاية:

إذا كان على التربية أن تحافظ على الثوابت والأخلاق والقيم، فإنّ عليها أيضًا أن تجدّد الفكر وتطوّر العلم وتجعل الجيل رائد عصره وعبقري زمانه ينشد الصّواب والخير والفضيلة، ويبتعد عن الخطأ والأمراض والآفات، ولا يتأتى ذلك إلا بتربية جيل مسلم مربّى على عين الحقيقة الإسلامية، فالمتتبّع لمنهج الإسلامي التربوي يجده يقوم في أكثر مساحته على مبدأ الوقاية فكان على التربية أن ترعى هذا الأصل وتحافظ عليه وتصون الفطرة وتحافظ عليها من الانحراف والسقوط،

لأنّ الإنسان في أمسّ الحاجة إلى الحماية والرعاية ليظّل على الفطرة السويّة وحتّى عندما يخطئ نظّمت له تربية علاجية وفتحت له بالتوبة آفاقًا من الأمل في تغيير الواقع ليقوم بدوره في خلافة الأرض وإعمارها بالعمل الصالح.(9)

فتراكم الآفات وتعقّد المجتمع وازدياد تخصصاته أدّى إلى الحاجة إلى الاتصال العمومي أكثر من أيّ وقت مضى من أجل التوعية والشرح والتفسير، حيث لا بدّ لهذا النوع من الاتصال – حتى يمكننا أن نطلق عليه إستراتيجية تعمل على المدى البعيد – أن يبدأ منذ الصغر، أي بربط الفرد بمجتمعه منذ صغره بتعليمه كل القيم والرموز والمعايير الاجتماعية التي تسمح له بالتفاعل مع الآخرين ومن ثم إدماجه في جماعته الاجتماعية مهما كان نوعها (العائلة، الأصدقاء، الوطن. . .)، فالمؤسسات التي يحتّك بها الطفل في صغره تساهم عبر الاتصال العمومي من خلال الكتاب مثلا بخلق جوّ حضاري ملائم للتقدّم والنهضة عن طريق التوعية وتثبيت القيم والمبادئ والعمل على تطبيقها، والاتصال العمومي كإستراتيجية كفيل بالقيام بهذا الدور بفعالية عبر دعائمه المختلفة ليهيّئ للفرد منذ الصغر أساليب التعامل والتكيف مع البيئة، وبذلك يضع الاتصال العمومي نصب عينيه تنشئة الفرد تنشئة اجتماعية صحيحة بما يتفق واحتياطات المجتمع المتحضر ليتكيف مع العوامل البيئية والمحيط الاجتماعي فيساعده ذلك على اكتساب المهارات وتحمّل المسؤوليات ولا يمكن لذلك أن يحدث دون إقحام الاتصال العمومي الذي يعمل عللا إشراك الفرد منذ الصغر في أهدافه ليكون التغيير والتحديث أكثر فعالية.

فالمتتبع لمنهج الإسلام التربوي يجده يقوم في أكثر مساحته على مبدأ الوقاية وأنّ الوقاية خير من العلاج لكون الإنسان مجبولا بالفطرة على الإيمان، فهو في حاجة إلى الوقاية أكثر من حاجته إلى العلاج، والتربية الإسلامية ترعى هذا الأصل وتحافظ عليه وتصون هذه الفطرة وتحافظ عليها من الانحراف والسقوط، لذلك كانت الدعوة الإسلامية سباقة لقطع الطريق على الأزمات والمشاكل قبل وقوعها بيدّ باب الذرائع والمنافذ لئلا تتسرّب الآفات، فالوقاية أكثر فعالية من علاج المشكلة بعد وقوعها، ومن ثم العمل على إزالة معالمها وآثارها، فإستراتيجية الوقاية تحتاط وتتوقع ما يمكن أن يحصل إذا توافرت شروط معينة، فتعمل على تأمين

المحيط الذي يعيش فيه الفرد بشكل يسمح له بالتكيف مع البيئة، ويتألف مع قيم المجتمع وعاداته وتقاليده، وإستراتيجية الوقاية في مجال الاتصال العمومي أصعب بكثير من إستراتيجية العلاج التي تنتظر أن يحصل الحدث أو الآفة لتحديد معالمها وتشخيص عوارضها ثم تقديم التقنية الناجحة للشفاء، لذلك فالوقاية صعبة تتغير من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر، لكنها في الوقت نفسه أفعل وأعظم أثرًا وأكثر مردودية على المجتمع ككّل ورفاهيته.

لذلك كان اهتمام المنهج الإسلامي بالجانب الوقائي يفوق بشكل كبير اهتمامه بالجانب العلاجي، وهذا ما يجعل المنهج الإسلامي متفرّدًا على سائر المناهج ذات المنحى العلاجي، بدليل أنّنا نلاحظ وحفاظًا على النفس البشرية تكرار كلمة (ولا تقربوا) في القرآن للنهي عن المحرّمات والفواحش لأن القرب منها يؤدي إلى الوقوع فيها.

فالتربية الوقائية منذ الصغر مهمة في أي مجتمع لأنها تكوّن مناعة وحصانة ضدّ الانحراف والمفاسد والآفات الاجتماعية، وتساهم في إعداد أجيال متوازنة عقليا ونفسيا واجتماعيا قادرة على التكيّف في ضوء تعاليم وقيم ومبادئ الإسلام التربوية المساعدة على الوقاية من مختلف الآفات المؤدية إلى الضياع شرف مراعاة بعض المقوّمات الوقائية:

- المعرفة الصحيحة بالمشكلات والآفات المتنبأ بها.
- المعرفة الصحيحة للأزمات التي يمكن للإنسان أن يمّر بها في مراحل حياته.
- التنبؤ الدقيق والعلمي لهذه المشكلات والأزمات.
- المعرفة الصحيحة للأفراد والجماعات المعرضين للمخاطر أكثر من غيرهم.
- الاقتناع بأهمية الوقاية من الآفات وأنها ذات تكلفة أقل من علاجها.
- أن تكون هناك سياسة واضح بل إستراتيجية للوقاية من الآفات.
- أن تكون أهداف الوقاية قابلة للتطبيق على ضوء نتائج وبحوث علمية أصيلة.
- التخطيط لهذه البرامج الوقائية وأن يضعها متخصصون مهنيون محترفون.
- إشراك الجمهور المستهدف وكافة المجتمع في العمل الوقائي.

- الوقاية مسؤولية الجميع فهي التزام فردي ومسؤولية جماعية.
- أهمية التقويم والمتابعة للبرامج الوقائية لزيادة كفاءتها وفعاليتها.
- مراعاة قواعد الدين الإسلامي عند وضع وتنفيذ وتقويم هذه البرامج الوقائية لما للمنهج الإسلامي من دور فعال في هذه العملية. (10)

وعليه فإنّ الاتصال العمومي كإستراتيجية تعمل على رقّي وحضارة المجتمع في جميع مجالاته عبارة عن جهد منظم يستند على التربية الوقائية بالإقناع، حيث لا يتّم ذلك بالقهر والإجبار أو بمجرّد إصدار قانون وإنما بجهود متتالية تستهدف العقل والعاطفة بالتخطيط وبذل الجهد والوقت في سبيل إرساء تربية وقائية سليمة مبنية على مبادئ وقيم صحيحة صالحة لكل زمان ومكان كما هو شأن قيم التربية الإسلامية التي تعتبر قيما ترتقي بالإنسان وتصون كرامته منذ خلقه جنينا إلى غاية وفاته، حيث لم تعرف البشرية قيما تربوية ومبادئ إنسانية مثل التي أعطاها الإسلام ودعا إليها إكراما للإنسانية جمعاء لتحيى حياة حضارية صحيحة خالية من الآفات والفساد والدمار الذي يتسبب فيه أفراد غير مسؤولين ومتجردين من القيم والمبادئ وأسس التربية الصحيحة.

فالتربية في الإسلام أهم ما يميزها هي أنها من صنع الخالق ومن توجيهات نبيّه الكريم، فهي ليست كغيرها من التربيات التي هي من صنع البشر، فالفارق كبير والبون شاسع ولا مقارنة بينهما، فهي كلها صالحة وحق تبدأ من تعلم العلم ونشره وصولا إلى تربية الضمير وتنميته في الإنسان، حيث هو الأساس وعليه مدار الأعمال، فإذا صلح الضمير صلحت الأعمال والعكس صحيح، فعليه يتوقف تماسك المجتمع وعليه يتوقف ضمان سعادته ورفاهيته لأنّ أي انحراف في هذا الضمير - وهو المنطلق- يؤدي حتما إلى الآفات والهلاك، فإهمال تربيته هو إهمال للمجتمع ككّل وإهمال لعملية الوقاية من الآفات المهلكة على اختلاف أنواعها ومجالاتها، لذلك كانت صلة الضمير بالدين صلة توجيه وإرشاد تستمر مدى الحياة لأنها صلة مهيمنة متى زالت هذه الصلة يختل توازن الضمير فيختل السلوك، بالتالي تنتشر الآفات، وعليه فإنّ الضمير الموصول بدين الإسلام هو أساس كل تربية

وقائية صحيحة كأساس لإستراتيجية الاتصال العمومي الهادف للمصلحة العامة ولرفاهية المجتمع ولحضارته.

البعد البيئي كنموذج:

لقد أصبح الحديث عن الاتصال البيئي حديث الساعة نظرا لما آلت إليه الطبيعة من تدمير وخراب بسبب الإنسان، ناهيك عن المؤتمرات والملتقيات، المنظمة في هذا المجال والاتصال العمومي أيضا يهتم بالسلوكات الحضارية التي تحافظ على البيئة، أما عناية السنة النبوية أو الدعوة الإسلامية فكانت أكثر تفصيلا وتفريعا بل سبقت في عنايتها بالبيئة بآلاف السنين عن طريق القرآن الذي وضع الأصول والقواعد الكلية والسنة التي ترشح بالأحكام والتوجيهات الجزئية والفروع التفصيلية، حيث سبقت السنة النبوية الجماعات والأحزاب المعاصرة في كثير من أنحاء العالم التي تنادي بالمحافظة على (الخضرة) في الغابات وغيرها وتندد (بقتلة) الأشجار و (بالمذابح) التي تتعرض لها الأراضي الخضراء نتيجة جهل الإنسان وجشعه[11]

أصبحت قضية البيئة ومشكلات البيئة وتلوث البيئة واستنزافها، بل التوازن ف ي الكون كله حديث المثقفين والمفكرين والعلماء في العالم كله بل أصبح هم الجماهير الغفيرة من الناس لأن فساد البيئة واستنزافها يهدد الجميع حتى قال بعض الباحثين: لو كان للبيئة لسان ينطق وصوت يسمع لصكت أسماعنا صرخات الغابات الاستوائية التي تحرق عمدا في الأمازون وأنين المياه التي تخنقها بقع الزيت في الخلجان والبحار وحشربة الهواء الذي يختنق بغازات المصانع والرصاص في مدن العالم الكبرى

لقد بات للبيئة علم خاص يبحث في قضاياها ويفصل موضوعاتها ويعالج مشكلاتها ألف فيه عدد كبير من الكتب في العالم وبمختلف اللغات وطبيعي أن تنشأ للبيئة وحمايتها في كل الدول مؤسسات رسمية وشعبية علمية وعملية وإقليمية ودولية وتعقد ندوات علمية وحلقات دراسية ومؤتمرات لمواجهة هذه القضية الكبيرة بما تستحقه [12]

لقد انتشرت كلمة حماية البيئة حتى غدت شبه مصطلح فيما ينبغي عمله نحو البيئة، لكن الكلمة الأحق والأولى من كلمة الحماية هي كلمة الرعاية، فكما يقال، رعاية الطفولة ورعاية الأمومة، رعاية الأسرة، نقول أيضا رعاية البيئة، ذلك أن كلمة الحماية تقتضي المحافظة على البيئة من جهة العدم أو السلب، بمعنى المحافظة عليها من كل ما يفسدها أو يضرها أو يلوثها، أما كلمة الرعاية فهي تقتضي المحافظة على البيئة من جهة الوجود ومن جهة العدم جميعا، بعبارة أخرى من جهة الإيجاب ومن جهة السلب فمن جهة الإيجاب أو الوجود ينبغي العناية بالبيئة من جهة ما يرقي بها ويصلحها وينميها ويصل بها إلى الغاية الموجودة

ومن جهة السلب أو العدم ينبغي حمايتها من كل ما يعود عليها بالضرر والتلوث والفساد وكل هذا يدخل تحت مفهوم العناية، وهذا هو الفرق بين نظرة اليوم للبيئة بنظرة الحماية ونظرة الدعوة الإسلامية للبيئة بنظرة الرعاية والإصلاح معرفة وسلوكا، فكرا وتطبيقا

الدعوة الإسلامية شملت علم البيئة وعلم الاقتصاد والأخلاق لأنها ترى أن العناية بالثروة الحيوانية هي شمول الأخلاق السامية واتساع دائرة المسؤولية فيها، وأنها لا تقف عند الإنسان فقط بل تشمل كل كائن حي من الحيوان والطير وغيره، بل في أحاديث أخرى ما يشمل الجمادات أيضا، فالدعوة الإسلامية تربية أوسع أفقا وأبعد مدى من مجرد التربية الدينية التي تقتصر في أذهان الكثيرين على غرس العقائد وتعليم الشعائر، إنها تربية ودعوة تتعلق بكل نواحي النشاط التي يمارها الإنسان في الحياة روحية ومادية، فردية واجتماعية، نظرية وعملية[13].

*** الدعوة الإسلامية تحافظ على الأجناس الحية من الانقراض:**

تؤكد الدعوة الإسلامية إلى حقيقة كونية قررها القرآن الكريم في الآية 38 من سورة الأنعام، وهي أن الكائنات الأخرى – غير العاقلة – لها كينونتها الاجتماعية الخاصة التي تميزها عن غيرها وتربط بعضها ببعض فكل منها أمة مثلنا أي أمة لها كيانها واحترامها، ولا يقتضي ذلك المشابهة في كل شيء بل أن لله حكمة في خلقها وتمييزها عما سواها من الأجناس والأمم الأخرى، فأمة

النمل غير أمة النحل غير أمة العنكبوت وأمة الكلاب غير أمة ابن آوى، وما دامت أمة لا ينبغي أن تستأصل خلقها حكمة وضرب من المصلحة [14]

*** تجاوز الدعوة الإسلامية لقضايا البيئة المعاصرة:**

فالبيئة تقع في إطار مسؤولية الإنسان عن هذا الكون وأهمية الدعوة الإسلامية بها اهتماما فائقا لأنها تريد للناس أن يعيشوا في بيئة نظيفة، لكن قضايا البيئة في الدعوة الإسلامية لا تقتصر على التلوث المادي للبيئة فقط في صوره المتعددة وإنما أيضا التلوث الأخلاقي، فمعالجة الإسلام لهذه القضية تتم بشكل متكامل كما هو الشأن في معالجة لكل قضايا الإنسان، فالحفاظ على البيئة جزء أساسي من العقيدة حيث إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان حيث يشمل الأذى كل أنواع الإيذاء التي تلوث البيئة وتضر بمصالح الناس وصحتهم وأذواقهم ومشاعرهم، فتكدس القمامة في الشوارع أذى يضر الناس والكلمة التي تخدش الحياء أذى يلوث البيئة الأخلاقية ويفسد أذواقهم ومكافحة الأذى بكل صوره يعد من الواجبات الدينية التي يكتمل بها إيمان المؤمن وليست أمرا هامشيا يمكن التغاضي عنه، ما يقرر الإسلام أن الناس شركاء في أمور عدة من بينها الماء الذي يعتبر شريان الحياة، لذلك لا يجوز لأي من الشركاء فردا أو جماعة ان يلحقوا الأذى بالماء لأن ذلك يضر بصحة الإنسان، لذلك ينهي الإسلام الإنسان عن التبول والتبرز في المياه الجارية وينسحب ذلك على إلقاء النفايات الخاصة بالمصانع وما شاكلها في المياه الجارية وكذلك الشأن في الهواء، فالنهي يشمل كل ما من شأنه أن يلوث الهواء ويجعله ضارا بالصحة فملوثات الهواء مرفوضة إسلاميا لأن الهواء والماء لا يملكه فرد أو جماعة تفعل به ما تشاء وإنما هو ملك عام لكل الناس في كل زمان ومكان[15].

ويتصل بتلويث البيئة إشغال الطريق بأي شكل من الأشكال سواء كان ذلك بإشعاله بمخلفات البناء أو القمامة أو المستشفيات التي تعوق حركة الناس وتضر بصحتهم، أو حتى بإشعال الطريق بالجلوس فيه مما يسبب مشقة للعابرين، ففي الإسلام حتى الطريق لديه حق، وفي حياتنا اليومية أمور عديدة تعود الناس عليها على الرغم من أنها تعد من ملوثات البيئة التي تسبب إزعاجا للآخرين مثل الضوضاء

المفرطة ورفع الصوت عند الحديث وإساءة استخدام مكبرات الصوت في دور العبادة أو في الأفراح والتدخين والمبالغة في رفع أصوات الإذاعة والتلفزيون أو المسجلات في البيوت أو الشوارع أو السيارات وهي أمور تدخل في إطار الإضرار بالناس المنهي عمه طبقا للقاعدة النبوية لا ضرر ولا ضرار[16]

*** التأصيل الشرعي لرعاية البيئة:**

إن رعاية البيئة وحمايتها وإصلاحها والمحافظة عليها ليست أمرا دخيلا على علوم الإسلام والدعوة الإسلامية وليست من ابتكار الغرب في هذا العصر كما قد يتوهمه من لم يتعمق في معرفة التراث العلمي والحضاري الإسلامي، فرعاية البيئة تتصل بعلم أصول الدين أو علم التوحيد وبعلم السلوك وعلم الشريعة أو الفقه وبعلوم القرآن والسنة[17]

أ) علم أصول الدين ورعاية البيئة: دور الإنسان الأساسي اتجاه البيئة المسخرة له أن يتعامل معها بما لا يجافي سنن الله في خلقه ولا أحكام الله في شرعه فيأخذ منها ويعطيها ويرعى لهل حقها لتؤتي له حقه ويتمثل هذا الدور الإنسان في مهام ثلاثة وهي الأهداف الكبرى للحياة الإنسانية وهي مقاصد الله من المكلفين عبادة الله، خلافة الله في الأرض وعمارة الأرض وذلك بالغرس والزرع والبناء والإصلاح والإحياء والبعد عن الفساد، وهي مقاصد متداخلة ومتكاملة

ب) علم السلوك ورعاية البيئة: تدخل رعاية البيئة هنا في دائرة الخلق ومن أعظم توجيهات الدعوة الإسلامية بالنسبة إلى البيئة الإحسان إليها بكل عناصرها بالإحسان للإنسان، للحيوان للنبات، للماء والهواء، فالدين المعاملة ليس مجرد شعار، ثم يساء بعد ذلك للخلق والإنسان والحيوان والكون، فمعنى الدين المعاملة، إحسان المعاملة في كل شيء بدءا بالمعاملة مع الله مع النفس، الجسد، العقل والروح والناس جميعا والكائنات المحيطة جامدها وحيها، صامتها وناطقها، عاقلها وغير عاقلها، وبهذه الروح وبهذه النية يتعامل الإنسان مع البيئة ومكوناتها من حوله رفقا بها وإصلاحا لها من تشجير وتخضير وإحياء وتعمير ونظافة وتطهير ورفق وإحسان والمحافظة على مواردها وثرواتها من كل أنواع الإضاعة والإتلاف والإفساد في الأرض[18]

ومن أجمل ما جاء بها الإسلام في علاقة الإنسان بالبيئة وبالكون عامة إنشاء عاطفة الود والحب لما حول الإنسان من كائنات، فالأحياء من الدواب والطيور يراها أمم أمثالنا لها خصائصها وطرائقها وغير الأحياء يراها ساجدة مسبحة لله، فإذا كان الغربيون يعتبرون أساس المشكلة الاقتصادية هو قلة الموارد في مقابل كثرة البشر فإن القرآن يرى أن نعم الله لا يمكن إحصاؤها وموارده في الكون غزيرة، لكن المشكلة تكمن في الإنسان الظلوم المسبب للخلل في الكون بتجاوزه

ج) **أصول الفقه ورعاية البيئة:** حفظ البيئة من المحافظة على الدين والجناية عليها وحفظها من المحافظة على النفس أي على الحياة البشرية وسلامة البشر وصحتهم وحفظها من المحافظة على النسل أيضا، حيث بقاء النوع الإنساني في هذه الأرض والجناية عليها تهدد أجيال المستقبل، كما أن الحفاظ على البيئة من المحافظة على العقل الذي هو أساس التكليف في الإسلام، فحفظ البيئة يقتضي الحفاظ على الإنسان بكيانه كله، الجسدي العقلي، النفسي، وما يقوم به الإنسان اليوم من إفساد للبيئة وتعريضها وتعريض نفسه معها للخطر يعد ضربا من الجنون لا يعرف مضره مما ينفعه، كما أن الحفاظ عليها من المحافظة على المال وهي الضرورة الخامسة، فالأرض مال والشجر مال والزرع مال والأنعام والماء والمعادن والنفط والمحافظة عليها محافظة على البيئة وإنماء لها

د) **القرآن والسنة ورعاية البيئة:** كل العلوم الشرعية السابقة الذكر أعمدتها القرآن والسنة تستند عليهما في أحكامها، فمن دلائل القرآن على الاهتمام بالبيئة وجود عدد من السور بأسماء الحيوانات والحشرات والمعادن وبعض الظواهر الطبيعية، حيث لها دلالاتها وإيحائها وارتباطها بالبيئة، أما السنة فقد ورد الأمر بالغرس والزرع في جملة من الأحاديث الصحاح بالإضافة إلى تشجيع إحياء للأراضي الموات التي ليس لها مالك ولا ماء ولا ينتفع بها والعناية بالحيوانات وحقوقها التي يجب أن ترعى وتؤدي، المحافظة على الثورة النباتية والمائية وصحة الإنسان المرتبطة بسلامة البيئة، فالدعوة الإسلامية بنقاء عقيدتها وكمال شريعتها وتوازن أخلاقها جديرة أن تقدم للإنسانية في مشكلات البيئة وصفة الدواء وهداية الشفاء بما احتوته من توجيهات وتشريعات وأخلاقيات

مرتبطة كلها بالإيمان بالله، لعل البشرية تستفيد في سلوكها البيئي من هذه الدعوة الإسلامية، فهي هداية للبشرية جمعاء [19]

*** واقع علاقة الإنسان بالبيئة اليوم والمبررات الشرعية الموجبة للحفاظ عليها:**

إن انطلاق الثورة الصناعية من منطلقات مادية بحتة بغير ضوابط أخلاقية وبغير فهم صحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة أصبح يتهدد الأرض جميعا بالدمار الكامل ومن ثم أصبح يؤكد حاجة الإنسان إلى الهداية الربانية في كل سلوك يسلكه على هذه الأرض، وما دام الإنسان خليفة الله في الأرض، يعمر فيها، فإن عمارة الأرض تكون بحسن استثمار ثرواتها، بالعلم والتقنية والمحافظة على صفاتها الفطرية لتيسير حياته كلها حيث لديه من ملكات حسية وعقلية وبدنية ما يعينه لتحقيق ذلك، ومسؤولية الإنسان على الأرض مسؤولية كاملة، عن صخرها ومائها وهوائها ونباتها وهو ما يسمى بالبيئة أي كل ما يحيط بالإنسان من مختلف صور المادة والطاقة والحياة ومن نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية ودينية وهو مسؤول أمام الله وأمام الناس على المحافظة عليها، فتصبح المحافظة على البيئة من مقاصد الشريعة الإسلامية والاعتداء على أحد مكوناتها المادية أو المعنوية هو مخالفة شرعية وعلى ذلك فإن من الواجب أن يكون الإفساد في الأرض أو في البيئة بمختلف أبعادها المادية والمعنوية مخالفة قانونية في دستور كل أمة من الأمم وجزء من تشريعاتها، يعاقب أولياء الأمور كل متجاوز لها حماية للإنسانية كلها.

الهوامش:

[1] ميرفت الطرابيشي: نظريات الاتصال، دار النهضة، 2006، ص 18.

[2] Michel LENET: La Communication publique, pratique de compagnes d'information, Edition de documentation Française, Paris, 1992, P13.

[3] Marianne Messager: La Communication publique en pratique, les Editions d'organisation, Paris, 1995 ،P50.

[4] Marianne Messager: Ibid ،P51.

[5] Boris Libois: La communication publique, pour une philosophie politique des medias, Edition harmattan, paris, 2002, P33.

[6] P. MALAVAL, J. M. DELAUDIN: Communication, théories et pratiques, Editions person éducation, Paris, 2005, P668.

[7] حسين بن عبد الله بانبيلة: أصول التربية الوقائية للطفولة في الإسلام، ط1، مكتبة الرشد، الرياض، 2009، ص 11.

[8] المرجع السابق، ص 16.

[9] المرجع السابق، ص 17.

[10] مدحت محمد محمود الصاوي: الخدمة الاجتماعية الوقائية، دار الفكر، دبي، 1996، ص 112.

[11] يوسف القرضاوي: السنة مصدر للمعرفة والحضارة، دار الشروق، القاهرة، 2005، ص 141

[12] يوسف القرضاوي: رعاية البيئة في شريعة الإسلام، ط 2، دار الشروق، القاهرة، 2006، ص 07

[13] يوسف القرضاوي: السنة مصدر للمعرفة والحضارة، مرجع سبق ذكره، ص 145